

جماعة الصفوة ودورها

في بناء هيبة الدولة.

أ.جمال حواوسة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

يعد احترام المواطنين للقوانين والتشريعات من أهم العناصر التي تمنح الدولة هيبتها ومكانتها على الصعيد الداخلي والخارجي، وقد شهدت الدولة الجزائرية في العشرية الأخيرة انتهاكات لقوانينها ومؤسساتها من طرف بعض الفئات، حيث تم خرق مقاييس الحقوق والواجبات، واندفع المواطنون نحو ممارسة الفوضى والسخط العام والخروج على القوانين ومؤسسات الدولة وسلطتها التنفيذية.

ولعل أرفع ميزة نسبية ترومها الدول، ويسعى الأفراد إلى اكتسابها، وتتنقب طريقها المؤسسات والجماعات والكيانات الاعتبارية، هي ميزة الهيبة المتممة لمفردات امتلاك الثروة والسلطة والجاه، أو قل المظاهر العصرية الكلاسيكية،

جماعة الصفوة ودورها في بناء هئية الدولة.....أ.جمال جواوسة

وبالتالي فإن الهئية هي خط الدفاع الأول عن القوانين والحيازات والمكاسب المتحققة بالكد والبذل، وليس بخبطة حظ أو حصيلة ميراث.

ولا تتحقق الهئية هكذا من تلقاء نفسها، ولا يتم الحصول عليها مجاناً من دون كلفة بمجرد طلبها، وإنما يقتضي بلوغها والتمتع بها، بذل الجهود المضنية، والاستعداد لدفع الأثمان الباهظة في أغلب الأحيان، بما في ذلك بذل المال، والسهر والاحتدام والمعاناة، والتضحية إن اقتضى الحال، ليس لمرة واحدة فقط، وإنما على مدى العمر من دون توقف أو انقطاع، لتحقيق الهئية وتحسينها ضد كل الأضرار.

ومع أن مفهوم الهئية واصل تطوره عبر الحقب، ودخلت عليه بعض المتغيرات من جيل إلى آخر، إلا أن بنية هذا المفهوم ظلت محتفظة بكامل قوامها التاريخي، حيث كان تحصيل الهئية وما يزال محور سائر الأنشطة الإنسانية، بما في ذلك نشاط الحرب والسلم، وكسب الثراء وبناء القوة، واكتساب العلم والمزيد من المعرفة، ومراكمة مختلف المظاهر الدالة على النفوذ والغلبة.

وليست الهئية بهذا المعنى إلا محصلة نهائية غير مكتملة، تبقى عرضه للتغير أو التآكل، مصدرها مجموعة لا حصر لها من القيم المكتسبة، تتراوح مكوناتها بين الترهيب من جهة وبين فرض الاحترام من جهة مقابلة، يخاطب بها الآخر مباشرة، سواء أكان ذلك عن طريق العنف أو بواسطة السلم، تماماً على نحو ما تقوم به الدول، أو ما يسلكه الأفراد، إما للحصول على احترام الآخرين أو ردعهم بعناصر القوة الكامنة.

وإذا كانت الدولة تحرص على تنفيذ القوانين التي جاءت نتيجة إرادة الشعب وما قرره الدستور، فإنه عليها أولاً أن تلتزم بهذه القوانين، ثم تطالب المواطنين باحترامها، لا السير بالاتجاه المعاكس كقيام بعض القوى بأخذ

جماعة الصفوة ودورها في بناء هبة الدولة.....أ.جمال جواوسة

الرشوة وانتهاج المحسوبية والتمييز بين الفئات...الخ، إذا حينها ستفقد الدولة هيبتها بعدم احترام إجراءاتها وقوانينها. الأمر الذي يدعو الدولة إلى استخدام القوة في فرض القانون ضد العناصر الإجرامية والخارجة عن القانون وفرض هيبتها واحترامها، وهنا يكون تدخلها ضرورة تملئها جميع القوانين لكبح جماح هذه العناصر التي لو ترك لها التصرف على وفق هواها لقوضت أسس الدولة.

إذن هبة الدولة من احترام المواطن واحترام المواطن من هبة الدولة. فهبة الدولة لا تقاس بمقاييس القهر والجور والاستبداد فهي مهما استمرت ستهزم إزاء إرادة المواطنين. فكلما استقر الوضع الأمني والاقتصادي واحترمت حقوق الإنسان تعاظمت هبة الدولة والعكس صحيح.

وبغض النظر عن المواطنين واحترامهم لرموز الدولة ومؤسساتها، هناك أيضاً النخبة أو الصفوة التي تلعب هي الأخرى دوراً كبيراً في استعادة هبة الدولة أمنياً وسياسياً واقتصادياً، وهذه الصفوة القيادية المتفوقة أو المثقفة هي التي تسترجع سيادة الدولة وتقوم ببنائها على أسس عقد اجتماعي جديد يعبر عنه دستور ديمقراطي يؤمن العدالة والمساواة وسيادة القانون، وينبني عليه عهد جديد تكون من أولى مهامه بناء هبة للدولة، تأتي عبر الآليات الديمقراطية من رضاء الشعب وقناعاته وإرادته، بحيث تشكل قيمة وطنية عامة تمنح الوطن الهوية بوجه أعدائه وتمنح المواطن الأمن والأمان في المستقبل.

ويتفق علماء الاجتماع على أن دراسة موضوع الصفوة يمثل بؤرة اهتمام علم الاجتماع السياسي، ذلك أن البحث في مفهوم الصفوة يتطلب البحث في العديد من المفاهيم السياسية الأخرى مثل القوة، وهبة الدولة، والطبقة الحاكمة...الخ، كما أن تحليل مفهوم الصفوة إنما يعني تحليل بناء ((القوة)) في المجتمع، بحيث يمكن التعرف على الجماعات المهيمنة والمسيطرة، وهل هي جماعات محافظة لا توجهها سوى مصالحها الخاصة ؟ أم هي جماعات

جماعة الصفوة ودورها في بناء هئية الدولة.....أ.جمال حواوسة
متماسكة وواعية، بإمكانها أن تسهم في بناء هئية الدولة، وبالتالي تنمية المجتمع.
فما هي جماعة الصفوة؟، وما هو دورها في بناء واستعادة هئية الدولة؟
أولاً- مفهوم الصفوة Elite :

1- لغة:

الصفوة (بالفتح)، أو الصفوة (بالضم) تعني النخبة، وهي من كل شيء خالصه وخياره، وتعني أيضاً الإخلاص في المودة ومنها المصطفى أي المختار. والصفوة من القوم هم الأعيان والأخيار وعلية القوم، وأصحاب النفوذ والسلطان، وهم النخبة من الفنانين والمفكرين وأهل العلم¹.

2- اصطلاحاً:

تُعرف النخبة أو الصفوة Elite بأنها جماعة (أو جماعات) من الأفراد لهم خصائص مميزة تجعلهم يقومون بأدوار أكثر تميزاً في حياة مجتمعاتهم. ومؤشر هذا التميز في الأدوار كامن في تأثيرهم البالغ في مجريات الأمور وتوجيهها، وكذلك تأثيرهم في عمليات صناعة القرارات المهمة في مختلف مجالات الحياة.

يشير هذا المصطلح بمعناه العام إلى جماعة من الأشخاص يشغلون مراكز النفوذ والسيطرة في مجتمع معين، ويستخدم هذا المصطلح بالتحديد للإشارة إلى النفوذ الذي تمارسه هذه الجماعة وبخاصة القلة الحاكمة في مجال محدد. ولذلك فالصفوة هي أكثر الطبقات هئية وأثراً. وقد يشير المصطلح أيضاً إلى أعلى فئة في أحد ميادين التنافس، وتتألف الصفوة من المبرزين المتفوقين بالقياس إلى غيرهم، ومن ثم فهم يعتبرون قادة في ميدان معين، وبهذا المعنى

¹ - لمزيد من التفاصيل عن الصفوة لغتاً انظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، تركيا 1989.

جماعة الصفوة ودورها في بناء هبة الدولة.....أ.جمال حواوسة

تكون هناك صفوة سياسية، وصفوة في العمل، وصفوة في الفن، وصفوة علمية ودينية..¹ وتتدرج النخب عبر المستويات المتعددة للبناء الاجتماعي السياسي، بدءاً بالنخبة السياسية الحاكمة، ومروراً بما يمكن أن نطلق عليه النخب الوسيطة (كجماعات المثقفين والعلماء على سبيل المثال لا الحصر)، وانتهاء بالنخب المحلية على مستوى المدن الصغيرة والقرى. وللنخبة (أو النخب) وفقاً لهذا التعريف، دور بالغ في توجيه مسار المجتمع وتحديد مستقبله.

وعرف قاموس علم الاجتماع الصفوة بأنها: "جماعة صغيرة في مجتمع ما، وفي ظرف تاريخي معين، تحمل هذا الاسم نظراً لأنها تتمتع بأهمية تعطيها لنفسها أو يعطيها لها الآخرون".²

ومع هذا فإن تعبير الصفوة كمصطلح - كما يقول بوتومور - "لم يستخدم استخداماً واسعاً في الكتابات الاجتماعية والسياسية الأوروبية بوجه عام إلا في أواخر القرن التاسع عشر وفي ثلاثينيات القرن العشرين في بريطانيا وأمريكا بوجه خاص، وذلك حينما انتشر المصطلح وساد استخدامه في النظريات السوسيولوجية للصفوة، وعلى الأخص تلك التي تضمنتها كتابات فلوريد باريتو".³

ويعرّف ميلز Mills جماعة الصفوة من خلال وضعهم في البناء الاجتماعي وما يملكون من قوة، بينما يعرفها باريتو Pareto على أسس بيولوجية، أي امتلاك

¹ محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر 2006، ص ص 138-139.

² - Joseph Sumpf, Michel Hugues, **Dictionnaire de sociologie**, Librairie Larousse, Paris 1973, p p 100-101 .

³ بوتومور، الصفوة والمجتمع، دراسة في علم الاجتماع السياسي، ترجمة أحمد الجوهري وآخرون، دار الجيل للطباعة، القاهرة، مصر 1972، ص 1

جماعة الصفوة ودورها في بناء هيبة الدولة.....أجمال جواوسة

الإنسان أنواعاً من الخصائص البيولوجية - الرواسب -، لكنهما يتفقان في أن الصفوة أو النخبة هي محركة التاريخ.

إن مفهوم الصفوة ليس مفهوم جديد إذ أن أفلاطون نادى بحكم النخبة أي أن هناك مجموعة حكيمة لأنها تعرف، وهذه المعرفة غدتها بالفضيلة وهذه الفضيلة جعلتها تهتم بالمجتمع وتتفرد بحكمه، ذلك المجتمع المقسم عند أفلاطون إلى ثلاثة طبقات على أساس بيولوجي وسيكولوجي:

1- الشهوانية (التجار - الزراع - الصناع) الفعلة.

2- الشجاعة (الجنود).

3- الحكمة (الحكام).

ونجد بعد أفلاطون فلاسفة اليوتوبيا الذين نادوا بحكم الصفوة، ونجد سان سيمون الفرنسي في مطلع القرن التاسع عشر ينادي بحكم رجال الصناعة والعلم، إذن الفكرة حكم النخبة ليست جديدة، كذلك في بعض الطوائف العرقية أو الدينية نجد أن هناك تمايز بحكم الدم، مثلاً اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار، والبراهمة في الهند، والأسطورة النازية القائمة على الاصطفاء الدموي الجنسي.

ثانياً- الاتجاهات النظرية الرئيسية في الفكر الصفوي (باريتو، وموسكا، وميلز):

لقد اتخذت دراسة الصفوات مكاناً بارزاً في السنين الأخيرة، في أبحاث علم الاجتماع والعلوم السياسية، متخذة من الإطار النظري لكل من (باريتو، وموسكا، وميلز) البناء الفكري لنظرية الصفوة، فهؤلاء العلماء، ومن حذا حذوهم، تناولوا بالدراسة تلك الصفوات التي كانت تسيطر على مقدرات الشعوب في عصرهم، ومن ثم كانت الدراسات التي قام بها هؤلاء العلماء بمثابة الأساس أو القاعدة التي انطلقت منها مختلف الدراسات في هذا الميدان.

ودراسة الصفوة هي أساساً امتداد للآراء والمدارس التي ظهرت بعد

جماعة الصفوة وطورها في بناء هبة الدولة.....أ.جمال جواوسة

سقوط الملكية في فرنسا وبعد عشر الثورة الفرنسية في إحداث الاستقرار السياسي. ظهرت الصفوة كمدرسة تحاول أن تعطي تفسيراً جديداً للحكم والعلاقة بين الحكام والمحكومين وخالفت التقسيم الأرسطي القائم على عدم وجود حكومة مثالية ويقول إن هناك اختلاف في درجة فساد الدول ولا دولة للفلاسفة كما يقول أفلاطون، فعند أرسطو الدولة مقسمة على أساس احترام القوانين أو عدم احترام القوانين فنجد التقسيم السداسي:

- الملكية - الارستقراطية - الديمقراطية تحترم القانون.

- الاستبدادية - الطغمة - الفوضى لا تحترم القانون.

ومدرسة الصفوة جاءت لنفي هذا التقسيم، وحاولت الوصول إلى علم محايد للسياسة، وسوف نتعرض هنا باختصار لبعض الاتجاهات السائدة في الدراسات الصفوية والتي يمثلها كل من (باريتو، وموسكا، وميلز):

1- فلفيد باريتو Vilfredo Pareto (1848-1923):

اقتصادي وسياسي وعالم اجتماع ايطالي صاحب نظرية ((دورة الصفوة))، ادخل عدة مفاهيم في الدراسات السوسيولوجية والاقتصادية، وتبنى اتجاهاً مشابهاً للاتجاه الوضعي في التفسير.

ويعتبر باريتو أول من أدخل مفهوم الصفوة في الدراسات السوسيولوجية¹، فكما يرى "تتكون الصفوة من جميع الأشخاص الذين يظهرون نوعاً من الاستعدادات العالمية في ميدانهم أو في أنشطة أخرى، أي أن لهم صفات خاصة، ويدخل في نطاق الصفوة كل من بواسطة عمله أو مواهبه الطبيعية يحقق نجاحاً بارزاً بالنسبة لبقية الناس".

والصفوة أيضاً تتكون من أعضاء متفوقين في المجتمع لهم صفات رفيعة

¹ - انظر في هذا الموضوع: Vilfredo Pareto, *Traité de sociologie Général*,

Génève, Droz, 1968.

جماعة الصفوة ودورها في بناء هبة الدولة.....أ.جمال جواوسة

تمنحهم القوة والسلطة، وهي صفة لا تنتقل عن طريق الوراثة، وهو ما يفسر إحلال صفوة جديدة محل أخرى قديمة تكونت من طبقات دنيا في المجتمع، مما يضيفي توازنا في النسق الاجتماعي يؤدي دوره في التغير الاجتماعي وهكذا تكون الصفوة عبارة عن واقعة يمكن ملاحظتها.

إن فكرة باريتو عن المجتمع تتمثل في أنه ((صفوي غير ارسطراطي))، فحسب مفهوم ((دورة الصفوة))¹، يطرح باريتو تساؤلاً عن ((السلطة الوراثة للنبالة)) يضاف إلى ذلك اعتقاده بأن القوة والسلطة لا تنتقل دائماً وبصفة مستمرة إلى الأشخاص من ذوي الصفات المتميزة، فدورة الصفوة كما يرى تمثل واقعة Fait يمكن ملاحظتها، وهي شرط أو لازمة للمجتمع لكي يتمكن من أداء وظائفه بشكل عادي وسليم.

ويتجاوز مفهوم الصفوة عند باريتو الطبقة الحاكمة مثلما هو الحال عند ماركس وموسكا وميتشل، فهي ليست نتاجاً لقوى اقتصادية كما هو الحال عند ماركس، ولا تستند إلى قوة قدرتها التنظيمية على النحو الذي يذهب إليه موسكا وميتشل، ولكنها كما أطلق عليها نتاج للخصائص الإنسانية الثابتة عبر التاريخ. وقد ميز باريتو بين نوعين من الصفوة :

- الصفوة الحاكمة: وتضم أصحاب النفوذ السياسي ومن يخول له توجيه المجتمع وتشكيل سياسته العامة.
- الصفوة غير الحاكمة: وهم أصحاب المواهب والقدرات الخاصة والنفوذ الخفي لكونهم ليسوا في مراكز السلطة والقوة الحاكمة.

¹ نيكولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، طبيعتها وتطورها، ترجمة محمود عودة وآخرون،

دار المعارف، القاهرة، مصر 1972، ص ص 245-246

جماعة الصفوة ودورها في بناء هيبة الدولة.....أ.جمال حواوسة

ولقد نادى باريتو بأن هناك غرائز بيولوجية، هذه الغرائز هي التي تتحكم في السلوك الإنساني، وبالتالي فقد أدخل السيكلوجيا في دراسة الصفوة، ويسمي باريتو الغرائز بالرواسب وهذه الرواسب بيولوجية تختلف من جيل لآخر، ومن وقت لآخر في نفس الجيل وتتميز بالدوام النسبي وإلى حد ما نجد التشابه في الراسب من حيث المبدأ ولكن الشكل مختلف، مثال: راسب التآليه: "غريزة البحث عن آله" لا تختلف من الوثني والبدائي إلى غيرهم ولكنها تأخذ أشكالاً مختلفة، فنجد من يعبد الصنم وهناك من يعبد الحزب أو الزعيم. نجد أن هذه الرواسب (الغرائز) غير موزعة بالتساوي بين أفراد الجنس البشري، فنجد مثلاً أن غريزة تطفلي على أخرى في كل إنسان، وهذا ما يحدد الطبيعة الشخصية للفرد. وهناك على حد قول باريتو ست أنواع من الغرائز أو الرواسب:

1- الميل الغريزي لتأسيس العلاقات والترابطات.

2- غريزة الاستمرار والبقاء.

3- غريزة الحاجة للتعبير عن العواطف بأفعال خارجية.

4- الغريزة المرتبطة بالألفة الاجتماعية.

5- غريزة تكامل الفرد مع ممتلكاته.

6- غريزة الراسب الجنسي.

هذه الغرائز هي الأساس التي حاول باريتو من خلالها أن يبرهن على وجود صفوة في المجتمع.

2- جيتانو موسكا Gaetano Mosca (1858-1941):

باحث في علم السياسة وصحفي ايطالي. يرى علماء الاجتماع أن الفضل في تعميق مفهوم الصفوة يعود إليه، حيث يرى أن الصفوة تتكون من "أقلية من الأشخاص الذين يمسكون بالسلطة في المجتمع" هذه الأقلية تتمثل في طبقة

جماعة الصفوة ودورها في بناء هبة الدولة.....أ.جمال حواوسة
اجتماعية حاكمة أو مهيمنة¹، وهذا بطبيعة البناء المحكم لأعضائها الذين تربط
بينهم علاقات إما قرابية أو مصلحة أو ثقافية أو اقتصادية، تمكنها من التأثير
على الأغلبية غير المنظمة وهذا ما يضمن لأعضاء هذه الطبقة وحدة التفكير
والتصور، كما تتصف أيضاً بقدرة على التنظيم لا تتوفر عليها الجماعات الكبيرة،
ويرجع ذلك إلى سهولة الاتصال بين أعضائها عكس الجماعات الكبيرة، وهذا
من شأنه أن يسهل عليها التدبير السياسي وتنفيذه بسرعة، وهي بذلك تشكل كل
متكاملاً يستجيب للمتغيرات الخارجية بقدرة فائقة.

ولم يلجأ موسكا لتحليل النفساني أو البناء الداخلي للصفوة وإنما تناول
أمراً ظاهرياً، فتحدث عن التنظيم، وقال أن الصفوة مؤهلة بالضرورة للسيادة
والقيادة لأنها منعمة. ويقسم المجتمع إلى أقلية متميزة "الصفوة" وجماعة
عريضة والأولى تتميز بأنها منظمة والثانية بأنها غير منظمة وليس بينها رابط،
ويقول إن أي مجموعة كانت سياسية - اجتماعية - ثقافية المهم أن تكون منظمة
هي بالضرورة تملك المقدرة على تنظيم نفسها مما يحدد مدى ترابطها الداخلي
وتجانسها ومقدرتها على تلمس الخطر القادم من الخارج والرد عليه.

التربط والتجانس، والمقدرة على الرد، هي العوامل المحددة لجوهر
عصبة الأقلية، وهذه تكمن في التنظيم، وبالتالي يسير موسكا على خطو باريتو
بالقول في أي مجتمع بالضرورة أقلية وهي التي تحكم وتسود، والأغلبية
موجودة لعدم تجانسها وترابطها فنجد أن عنصر التنظيم هو جوهر فكرة موسكا،
ويتابع فكره فيقول الأنظمة بالضرورة مهما كانت ديمقراطية لا تختلف في وجود
هذه الأقليات، ولكن الاختلاف في من الذي يوجه خطوط السلطة إذ أن هذه
السياسات لا يخلقها الجمهور، وإنما تنبع من مصالح الصفوة والاختلاف الآخر

¹ - Guy Rocher, Introduction a la sociologie genarle- Le Changement
Sociale, Paris Ed H.M.H, V 03, 1968, p 134.

جماعة الصفوة ودورها في بناء هيبة الدولة..... أ. جمال جواوسة

هو سرعة دوران الصفوة أي تبادل الحكام فإذا كانت الصفوة مفتوحة يكون النظام ليبرالي اتوقراطي أو استبدادي (صفوة هابطة)، ونجد هذا الحديث هو النموذج المثالي عند موسكا، أي الحديث عن علاقة الصفوة بالجماهير، فإذا كان تدخل الجماهير بحرية تكون صفوة صاعدة وإذا كانت الجماهير لا تجد متنفساً للصعود إلى مراتب القوة تكون صفوة هابطة.

أما عن الفوارق بين موسكا وباريتو، فإن باريتو تحدث عن عوامل داخلية أو نفسانية أو باطنية Internal Biological ، بينما تحدث موسكا عن عوامل خارجية "العامل التنظيمي"، ومن ثم نجد أن موسكا بجانب لجوءه للدراسات التاريخية إلا أنه يعتمد كثيراً على المفاهيم الإدارية، فتجده يستفيد من التجارب السابقة "الصينية" فنجد الاختلاف في العامل النفسي موجود عند باريتو وغير موجود عند موسكا. كما أن موسكا يضع أهمية قصوى لدور الفرد، صحيح أن باريتو يعتمد العوامل النفسية ولكنها تتخذ شكل الاتحاد عند النخبة فتؤكد سيطرتها كنخبة. الوحدة تتحرك كمجموعة معينة لها شروطها وحدتها وترباطها وعضويتها وتستمد جذورها من الرواسب النفسية والبيولوجية، أما موسكا فيغلب دور الفرد لأن الفرد بالضرورة يمكن أن يقود التنظيم إلى ما شاء، وهذه تظهر جلياً في الأحزاب الاشتراكية. فنجد أن الحزب يمثل في حد ذاته مجموعة ذات مصالح تحركه تجاه العالم الخارجي.

وهكذا يصل موسكا في تعريفه للصفوة إلى الخلاصة التي مؤداها أنه يمكن بناء تفسير كامل للتاريخ انطلاقاً من تحليل الصفوة المسيرة (القيادية) فالتاريخ كما يبدو لموسكا يتسم بالنشاط والحيوية أثناء تحقيق الصفوة التي بيدها السلطة لمصالحها ونشرها لأفكارها.

¹ – Parry, **political Elites**, London, Georges Allen E Unwin L.Td, 1969, p 131

3- رايت ميلز Wright Mills (1916-1962):

عالم اجتماع أمريكي من أعلام اليسار الجديد في أمريكا في منتصف القرن العشرين، وله العديد من المؤلفات في نقد المجتمع والسياسة وبناء القوة في أمريكا، ومنها: ذوو الياقات البيضاء: الطبقات الوسطى الأمريكية 1951، وصفوة القوة 1956، والخيال السوسيولوجي 1959. وهو من علماء الاجتماع الأمريكيين الذين ساروا على نهج موسكا التقليدي في دراسة الصفوات مع اختلافه عن موسكا في بعض النقاط المهمة، حيث نجد أن ميلز نظر إلى الصفوة كحقيقة أكثر تعقيداً وتنوعاً، مما رآها موسكا وتحدث عن الصفوة كما لو كانت طبقة، وقد يعود هذا إلى نظريته المبسطة للحقيقة، الأمر الذي أدى به إلى الخلط بين ظاهرتين وهما: الطبقة الاجتماعية والصفوات، إذ يمكن تمييز صفوات الطبقة مثل: صفوة الطبقة العاملة، أو صفوة الطبقة الريفية الخ، وهذا ما أضفى غموضاً عند التحدث عن طبقة الصفوة¹ Class de l'Elite.

ولقد استلهم ميلز من موسكا إمكانية الدراسة الامبريقية لصفوة القوة L'Elite du pouvoir في الولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص.

ويتناول ميلز مفهوم الصفوة كطبقة ذات نفوذ وسلطة، والصفوة عنده تتجمع على شكل وحدة للقوة تحكم المجتمع. وترتبط بين أفراد هذه الصفوة مجموعة المصالح المشتركة بين الجماعات والمؤسسات كاشتراك المصلحة بين هيئات رأسمالية كبرى وبعض الحكومات الاستعمارية، الأولى في الحصول على الموارد الطبيعية والثانية في الهيمنة على المزيد من الأراضي.

ويزيد حجم نفوذ الصفوة بزيادة الحقل الذي تنشط فيه، فقد يكون نفوذها في مجتمع فردي لا يتعدى التحكم في نوع المحاصيل الزراعية وتصريف موارد المياه أو التحكم في بعض العادات والتقاليد البسيطة إلى رسم سياسات كبرى

¹ - Ibid, p 132.

جماعة الصفوة ودورها في بناء هيبة الدولة.....أ.جمال حواوسة

تتجاوز حدود البلد، مثل مشروع العولمة الذي تقف وراءه كبرى الشركات المتعددة الجنسيات التي تسيطر على اقتصاديات العالم ومنه إلى التدخل في الأمور الداخلية وفرض نماذج ثقافية مؤسسة على مبدأ ترسيخ التبعية للأقوى.

ويمكن تلخيص إسهامات رايت ميلز في دراسة الصفوة في ثلاث قضايا¹:

1- تمكن من تحليل الصفوة ومفهوم الطبقة الاجتماعية، مما سمح بفتح ميدان البحث في علم الاجتماع القوة sociologie du pouvoir ومن ثم دفع البحوث الامبريقية للصفوات إلى الأمام.

2- يمكن اعتبار ميلز من الذين مهدوا لعلم الاجتماع القوة بالإضافة إلى علم الاجتماع الصفوات.

3- كما يعود الفضل إلى ميلز في دفع عدد لا بأس به من البحوث اللاحقة عن الصفوات، ونذكر من هذه على سبيل المثال: بحث عالم الاجتماع الكندي (جون بورتر John Porter) الذي عالج مميزات الصفوة والعلاقات التي تربط بينها، سواء كانت سياسية أم اقتصادية أم تكنوقراطية، أم دينية، أم نقابية في كندا.

ثالثاً- الصفوات ودورها في بناء واستعادة هيبة الدولة:

تختلف الصفوة في طبيعة تأثيرها وفقاً لما تتمتع به من قوة ومن نفوذ، ولذلك فإن أقوى هذه الصفوات وأشدّها نفوذاً هي تلك التي نطلق عليها الصفوة أو النخبة المركزية، والتي تتكون من كبار رجال الدولة في أجهزتها التنفيذية. وهناك تصنيفات كثيرة للصفوة، كأن نصنفها بحسب المجالات أو النطاقات التي تظهر فيها، كالصفوة الاقتصادية، والفنية، والمهنية، والسياسية، أو وفقاً لوظائفها، أو استناداً إلى نظم المجتمع المختلفة، أو كأن نصنفها إلى صفوة سياسية، وصفوة غير سياسية، على اعتبار أن الصفوة السياسية هي تلك الجماعات الأكثر تأثيراً في القرارات السياسية المهمة، بينما يكون للصفوة غير السياسية تأثير في

¹ - Ibid, p 133.

جماعة الصفوة ودورها في بناء هبة الدولة.....أجمال جواوسة
مجالات أخرى. و للصفوة عموماً دور كبير في بناء هبة الدولة أمنياً وسياسياً
واقتصادياً...الخ، وهذا من عدة مجالات ونواحي منها:

1- المجال السياسي والإعلامي:

تلعب الصفوة السياسية دوراً بارزاً في تحديد مجرى النمو، وهي الصفوة
التي نجد أصولها غالباً في إحدى الجماعتين (القادة الوطنيين والمثقفون
الثوريون)، فالمثقفين لهم دور كبير في الصراع ضد الحكم الاستعماري، وعادة
ما يكون الطلاب في الجامعات هم حملة لواء الاستقلال.

وتقوم مجتمعات العالم المعاصر بتسليم زمام أمورها إلى أحزاب سياسية
كأسلوب متحضر لتسيير شؤون الناس وتسهيل مصالحهم، وتقوم هذه الأحزاب
السياسية بترتيب بيتها اعتماداً على أناس متخصصين وذوي فعاليات في شتى
الميادين، فتضع الخطط والبرامج والاستراتيجيات يكون لها بلا شك آثار على
حاضر ومستقبل المجتمع، وهذا من شأنه أن يثبت هرم الدولة على قاعدته،
بمعناه الوطني الشامل، وأن يصون هبة الشعب، التي هي وحدها تمد هبة
الدولة بالاحترام...ولا يخفى على أحد ما يمكن أن يتركه قرار سياسي كأثر
سلبي أو ايجابي على مسيرة المجتمع في جميع الحالات (قرار التعددية في
الجزائر) وهذا ما يفسر إصرار هذه الجماعات المتفوقة في أدائها في مجال
اختصاصها على أن تكون دائماً متبعة لهذه القرارات إن لم تكن هي التي أوجت
أو شاركت في صناعتها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

إن صنع القرار السياسي السليم من طرف جماعة الصفوة يحول دون النيل
من هبة الدولة، وعندما غدت هبة الدولة فتوية حزبية وشخصية، على هذا القدر
من المحدودية، تهمشت تجليات الدولة القيمية الأساسية، وتحولت من
اعتباراتها الوطنية العامة إلى محدودية الخصخصة، حيث أدى استخدامها
الخاص إلى نخر وهشاشة ما تبقى لها من أطر عامة، وإلى تعرضها لمخاطر

جماعة الصفوة وجورها في بناء هيبة الدولة.....أ.جمال جواوسة
جدية جمة. وبذلك انقلب مفهوم هيبة الدولة من العام "الاحترام" إلى الخاص
"القمع"...إلى الرهبة والرعب، وضاعت المواطنة بكافة مضامينها الوطنية
والحقوقية والإنسانية.

وقد تمكنت إحدى الدراسات الحديثة عن التصنيع، أن تحدد جماعات
الصفوة المهمة في البلاد النامية، فذهبت إلى أن هناك خمسة نماذج مثالية
للصفوات التي تقود في الغالب عملية التغير والتنمية في هذه البلاد¹:

- 1- الصفوة ذات العلاقة بالجماعة الحاكمة.
- 2- الطبقة الوسطى.
- 3- المثقفون الثوريون.
- 4- الإداريون.
- 5- القادة الوطنيون.

كما أن مجيء جماعة سياسية مناهضة للجماعة السابقة سيجلب عليه
بالتأكيد إجراءات تغييرية تمس قطاعات واسعة من المجتمع هذا إذا كان نفوذ
هذه الجماعة في دولة صغيرة، أما إذا كان هذا النفوذ له تأثير على دولة عظمى
كالولايات المتحدة الأمريكية فإنه سيتعدى إلى باقي الدول ومجتمعات العالم،
مثل قيام اللوبي الصهيوني كجماعة ضاغطة، وصفوة سياسية لها يد مباشرة في
إصدار القرار في هذا البلد بالأثر المباشر على العلاقات بين الولايات المتحدة
وباقى الدول العربية لصالح إسرائيل.

ومن ناحية أخرى فإن وسائل الإعلام الجماهيرية تؤدي وظائف عديدة
للفرد والمجتمع، تشمل الأخبار والتثقيف والترفيه فضلاً عن التعليم، وتكمن

¹ - محمد السويدي، علم الاجتماع السياسي ميدانه وقضاياها، ديوان المطبوعات الجامعية، بن
عكنون، الجزائر، دون سنة، ص 81.

جماعة الصفوة ودورها في بناء هبة الدولة.....أ.جمال جواوسة

قوة هذه الوسائل في سيطرتها على مصادر المعلومات التي يعتمد عليها الأفراد لبلوغ أهدافهم، وعلى الطرف النقيض يمكنها أيضاً إضعاف الشعور القومي واثارت النعرات القومية والطائفية من خلال ما تحمله من تأثيرات ثقافية وسياسية واجتماعية...الخ على المواطن والدولة.

ومنذ بدايات ظهور وسائل الاتصال الجماهيري وتأثير هذه الوسائل على الجماهير هو الشغل الشاغل لباحثي الاتصال، ومهما يكن مستوى هذا التأثير فإن الثورة التكنولوجية في مجال الاتصال التي شهدتها العالم في السنوات الأخيرة قد ضاعفت من دور وسائل الاتصال على كافة المستويات، وأصبح الإيمان عميقاً بالدور الذي يلعبه الإعلام في تشكيل الرأي العام تجاه القضايا والموضوعات المختلفة وبخاصة مع تنامي القدرات والإمكانيات التكنولوجية التي تمكن الإعلام من نقل الأحداث وتطوراتها في اللحظة نفسها.¹

ومن هنا تبرز أهمية الدور الذي تؤديه وسائل الإعلام وتأثيراتها على الجمهور وعلى فئات هامة وبارزة في المجتمع مثل فئات الصفوة الذين يساهمون في قيادة الجماهير وتشكيل الرأي العام خاصة في ظل تزايد اعتماد أفراد الجمهور على وسائل الإعلام بوصفها المصدر الرئيسي لاستقاء المعلومات عن الأحداث والقضايا المثارة، ويرجع السبب وفقاً لنموذج الاعتماد على وسائل الإعلام إلى انحسار خبرات الفرد المباشرة بالقضايا المختلفة¹.

وعندما تتبنى الصفوة صورة واضحة لما ينبغي أن يكون فإن الجمهور العام، وخاصة الأفراد الأكثر اهتماماً بالسياسة - يميل إلى رؤية الأحداث من

¹ خالد صلاح الدين، دور التلفزيون والصحف في تشكيل معلومات واتجاهات الجمهور نحو القضايا الخارجية، دكتوراه (غير منشورة)، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، 2001، ص5.

جماعة الصفوة ودورها في بناء هيبة الدولة..... أ. جمال جواوسة

خلال وجهة نظر هؤلاء الصفوة كما يميل إلى تبني مواقفهم، وبالتالي يحتل الدور الذي تقوم به الصفوة في تشكيل الرأي العام مكانة بارزة¹.

وكما هو معروف فإن الرأي العام في الديمقراطيات المعاصرة أصبح يحتل أهمية خاصة في توجيه نظم الحكم وإرشاد سياستها نحو التصرف بشكل معين، واتخاذ القرارات التي تلاءم القاعدة الجماهيرية العريضة، وتتماشى مع اتجاهاتها وآرائها².

ويمكن النظر إلى العلاقة بين الصفوة ووسائل الإعلام على أنها علاقة ذات شقين، هي دور وسائل الاتصال في حياة الصفوة باعتبارها إحدى قنوات الحصول على المعلومات والتثقيف والترفيه، أما الشق الثاني فيتعلق بتأثير الصفوة في وسائل الاتصال باعتبارها مصدراً مهماً ومحوراً من محاور الأخبار وأحد الروافد الأساسية لإثرائها فكرياً³.

2- المجال الاقتصادي:

إن للصفوة دور كبير في بناء الدولة من الناحية الاقتصادية، وهذا ما أكد عليه الكثير من الباحثين والعلماء الاقتصاديين، ولعل أكثر من تكلم في قدرة الجانب الاقتصادي وأهميته في الحياة الاجتماعية هو كارل ماركس، الذي بين أن تراكم التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج يزيد في سرعة وقوة الصراع بين طبقة (نخبة) قليلة العدد مالكة لوسائل الإنتاج وطبقة واسعة لا تملك إلا جهدها تبعه بأبخس الأثمان للرأسمالي الذي يعمل كل ما بوسعه

¹ شيماء ذو الفقار زغيب، نظريات في تشكيل اتجاهات الرأي العام، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 2004، ص

² عادل عبد الغفار، الإعلام والرأي العام، دراسة حول العلاقات المصرية الإسرائيلية، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات الدكتوراه (43)، بيروت 2003، ص 11.

³ عادل عبد الغفار، استخدامات الصفوة المصرية للراديو والتلفزيون المحلي والدولي، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الإعلام، جامعة القاهرة 1995، ص 6.

جماعة الصفوة ودورها في بناء هبة الدولة.....أ.جمال جواوسة

للإبقاء على هذه الحالة، وبين ماركس أيضاً أهمية الجانب الاقتصادي واعتبره منطلقاً لتفسير الظواهر الاجتماعية الأخرى المرتبطة به، فغالباً ما كان الساسة من كبار رؤوس الأموال لهذا البلد أو ذاك، هم أيضاً من يشرع قوانينه في الكسب والمعاش، وحتى الأخلاق كما يقول ماركس هي من صنع الأقوياء وهؤلاء الأقوياء هم الرأسماليون الذين يشكلون نخبة تفوقت بقدرات مالية وتنظيمية ونالت الصدارة في جميع مجالات الحياة الاجتماعية.

ولابد أن نشير هنا إلى أنه بالرغم مما تملكه جماعة الصفوة من إيجابيات في بناء الدولة، إلا أنه لديها سلبيات أيضاً ولاسيما من الناحية الاقتصادية التي تمثلها وبخاصة الصفوة ذات الملكية التي تستمد سلطتها مما تملكه من عقارات ورؤوس للأموال، وهي سلطة تفرضها على اليد العاملة التي تستخدمها لقضاء مآربها. كما تمكنها ثروتها من ممارسة قوة الضغط على الصفوات الأخرى، مثل: الصفوات التقليدية والتكنوقراطية(*)، مما يضيف على هذا النوع من الصفوات سلطة اجتماعية واسعة.

وتتكون الصفوات ذات الملكية أو الصفوات الاقتصادية كما يمكن تسميتها من كبار ملاك الأراضي الزراعية وأرباب الصناعات وأصحاب رؤوس الأموال، ولا يخفى أن لقرارات أعضاء هذه الصفوات تأثيراً في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فاحتكار الاقتصاد والسلطة بشكل حذيدي وشمولي، والتمايز الاجتماعي الطبقي، وسيطرة الطبقة السياسية الحاكمة على الهرم الاقتصادي، وانتشار الفساد والغلاء وتجميد الرواتب والأجور، وانحدار مستويات المعيشة للمواطنين إلى ما دون خط الفقر، والسير باتجاه خصخصة القطاع العام وبقية مؤسسات الدولة الإنتاجية والخدمية، وإدخال البلاد في مضمار اقتصاد السوق وتداعياته الحاملة للآلام الاجتماعية للغالبية الكبرى في المجتمع، كل ذلك أثر على هبة الدولة وسلطانها.

جماعة الصفوة ودورها في بناء هبة الدولة..... أ. جمال جواوسة

وفي دراسة ميدانية عن موقف الصفوة من النظام العالمي الجديد اتضح جلياً دور الصفوة المتعلمة في المجال الاقتصادي، حيث اختار صاحب الدراسة عينة من أساتذة الجامعة كصفوة متعلمة في دراسته كونها تعد من أهم الشرائح القادرة على التعامل مع هذه التغيرات وفهمها، كما تقع على عاتقها مسؤولية إعداد وتأهيل المجتمع للتفاعل مع هذه المتغيرات¹.

وهناك اتجاه اقتصادي في الفكر الصفوي يمثله عالم الاجتماع الأمريكي جيمس برنهام الذي نظر إلى الصفوة من زاوية اختلفت عن نظرة كل من باريتو وموسكا وميتشل، فإن سعى هؤلاء إلى دحض النظرية الماركسية في الطبقة الحاكمة. فإننا نجد برنهام قد حاول المزاوجة بين النظريتين أو الاتجاهين، ففي مؤلفه الذي نشره سنة 1941، تحت عنوان: "عهد المنظمين" أوضح بأن النظام الرأسمالي في تدهور مستمر، وأنه سيتحول تدريجياً إلى مجتمع تسيطر عليه صفوة إدارية تتولى شؤونه الاقتصادية والسياسية¹. وهذا يدل على أن الصفوة بإمكانها تحويل المجرى الاقتصادي لأي بلد مهما كانت طبيعته وسياسته.

ويكمن أيضاً دور الصفوة من الناحية الاقتصادية في دفع عجلة التنمية إلى الأمام، فالصفوة المختارة في الاقتصاد هي التي بيدها صنع القرار، ومنع هجرة

¹ - صابر عبد ربه، موقف الصفوة من النظام العالمي الجديد، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر 2002، ص 16-17.

¹ محمد السويدي، مرجع سابق، ص ص 71-72.

الصفوات التقليدية والتكنوقراطية: الصفوات التقليدية انبثقت من عقائد دينية أو أبنية اجتماعية تعود جذورها إلى ماضٍ سحيق، وتدعمها أفكار عميقة، أما الصفوات التكنوقراطية فتندرج في إطار بناء شرعي أو بيروقراطي، وتقوم سلطتها على قاعدتين: الأولى تعيينها أو انتخابها تم بمقتضى القوانين المعمول بها والمعترف بها، والثانية يعترف بكفاءتها حسب المعايير المعمول بها

جماعة الصفوة ودورها في بناء هيبة الدولة.....أ.جمال حواوسة

الكوادر بتوفير مناصب الشغل، وتوزيع أعمال تدعيم مختلف رؤوس الأموال وغيرها من العلاقات الأخرى التي تجد طريقها إلى حيز الوجود بدون أي نوع من أنواع الدعاية، وهذا كله من شأنه أن يزيد من هيبة الدولة على المستوى المحلي والعالمي.

3- المجال الثقافي:

إن اتساع هذا المجال وحساسيته يجعلانه يتبوأ مكانة لا يستهان بها، لأن دور المثقف كان وما زال يسيل فيه الكثير من الحبر، للعلاقة الحرجة بينه وبين السلطة الحاكمة من جهة وبين الجماهير التي تنظر إليه نظرة القيادة المعنوية من جهة أخرى. فكثيراً ما طُلب من المثقف أن يلعب دوراً متميزاً في التأثير على الأفراد والجماعات وتقديم صور واضحة عن مجرى الأحداث الاجتماعية في الحاضر والمستقبل. والصفوة المثقة في كافة المجتمعات تلك الجماعات القادرة على ابتكار ونقد ونقل الأفكار، وغالباً ما تضم هذه الفئة: المؤلفين، والعلماء، والفلاسفة، والمفكرين الدينيين، والمتخصصين في النظريات الاجتماعية... الخ.

إن المثقفين كطبقة مختلفة عن الطوائف الدينية والطبقات الحاكمة قد لعبوا دوراً مهماً في المجتمعات المتقدمة والنامية على السواء، وبخاصة حينما جعلوا من أنفسهم نقاداً للمجتمع، ففي فرنسا مثلاً تزعم المثقفون لواء معارضة الطبقة الحاكمة والكنيسة، كما أكدت دراسات عديدة دور المثقفين في الحركات الثورية والعمالية¹.

والانتليجنسيا Intellegentsia بصفتها نخبة متميزة في مجال تخصصها تضم مجموع مثقفي بلد معين يجب أن تقوم بالدور المنوط بها وهو تشكيل

¹ - محمد السويدي، مرجع سابق، ص 77.

جماعة الصفوة ودورها في بناء هبة الدولة.....أ.جمال حواسنة

وسط فكري منسجم وعصري (أي متتبعاً لكل فترة زمنية يعيش فيها) تقوم فيه بالإنتاج الفكري والمعرفي والإيديولوجي، للتعبير عن المواقف والقضايا الاجتماعية والتاريخ والمستقبل، والتدخل للفصل في حالات احتدام التناقض الاجتماعي.

والانتليجنسيا كمجموعة اجتماعية فكرية منظمة ومنسجمة تنظيمياً ومستقلة عن السلطة السياسية، منتجة للثقافة ومبدعة للقيم العلمية والفنية والأدبية والإيديولوجية، تحمل صفات يفترض أن تجسد وتحقق العلاقة القائمة بين جميع البنيات الاجتماعية من مؤسسات وأجهزة مادية ومعنوية للمجتمع. هذه المؤسسات هي التي تقوم بواسطتها التأثير على مجريات الأحداث الاجتماعية التي تؤدي إلى التغير الاجتماعي، فالمسرح كان منذ القديم يؤدي دور الناقد للأوضاع غير المقبولة في شكل درامي أو ساخر محاولاً جلب أنظار الجماهير وتوجيهها إلى اتجاهات معينة قد تكون محطات أو منعرجات أساسية لأحداث لاحقة. كما لا يخفى ما يمكن أن يترتب عن مقال صحفي كتبه واحد أو مجموعة من الصحفيين المرموقين والذين لهم مكانة ودور في المجتمع، وقد يؤدي هذا المقال إلى تغيير حكومي يترتب عنه تغير جذري للأوضاع الاجتماعية برمتها. فمثلاً اتحادات الكتاب والجمعيات يمكنها إعطاء قراءات جديدة للواقع (غير التي يراد لها من قبل السياسيين) من شأنها أن تتدخل مباشرة في إعادة تشكيل البنية الاجتماعية برمتها على غرار ما فعله الكثير من المثقفين القدامى والمعاصرين مثل: موقف جون بول سارتر من القضية الجزائرية في فرنسا، ومارتن لوثر كينج في الولايات المتحدة الأمريكية، وغاليلي إزاء الكنيسة... الخ.

خاتمة:

تؤدي الصفوة دوراً كبيراً في حياة مجتمعاتها، فالقرارات التي تشارك في صنعها، والسلوك الذي تنتهجه في إصدار هذه القرارات وفي تنفيذها، يؤثران تأثيراً كبيراً في صناعة تاريخ المجتمع وتحديد مساره. فعلى الرغم من أن القرارات السياسية، والتشريعات التي تحدد مسارات الحياة المتعددة وأطرها المعيارية، تصدر عن مؤسسات كالمجالس التشريعية، إلا أن هذه المؤسسات تسيّر أموراً من خلال نخب، أي أعداد قليلة من الأفراد يكون لها دون غيرها التأثير الأكبر في القرارات التي تصدر أو التشريعات التي تُسن. ومثل ذلك يقال عن المؤسسات التنفيذية التي تحوّل هذه القرارات والتشريعات إلى سياسات واقعية.

وتظهر جماعات الصفوة في المجتمعات كلها، بسيطة كانت أو معقدة، ويجمع علماء الاجتماع والسياسة على أن هذه الصفوة تتمتع بوضع اجتماعي ومكانة اجتماعية متميزة، وبامتلاك السلطة والنفوذ، بالإضافة إلى مهارات خاصة، وأن جماعة الصفوة قلة لها دور فعال في استعادة مكانة الدولة أمام مواطنيها أو أمام الدول الأخرى.

ويتضح مفهوم الصفوة المتعددة بشكل جلي في بعض الدراسات التي افترضت وجود صفوة إستراتيجية في مختلف ميادين الحياة، في الاقتصاد والسياسة والثقافة والمجتمع المدني، وأن لكل واحدة من هذه الصفوات وظيفة في ميدان وجودها. لقد أصبح في إمكاننا الآن أن نتحدث عن صفوات ثقافية، وأخرى اجتماعية تعمل في نطاق المجتمع المدني وفي الميدان الثقافي، لكن من دون أن تصل إلى سدة الحكم. فالجماعات التي تحمل لواء الثقافة وتدافع عنها، وتلك التي تقود الصيغ الثقافية الحاكمة، وكذلك الجماعات الرائدة في مجال حقوق الإنسان وفي نطاق الدفاع عن البيئة أو الأسرة...إلخ، كلها تتضافر

جماعة الصفوة ودورها في بناء هبة الدولة.....أ.جمال جواوسة
جهودها مع جهود الصفوة الإستراتيجية في المجالين الاقتصادي والسياسي، من
أجل أن يعمل المجتمع بتنسيق فعال بحيث تظهر الصفوة في مجالات متعددة
في القرية، والمدينة، والمؤسسة، والتنظيم، وفي المجال المدني عامة...الخ.